إلا اسم من يقيم العدل، ويستمر الفلاح في تحذيره لرئيس الديوان فيقول له انه إذا لم يستمع الى شكواه فإنه، اي الفلاح، سيستجير منه «بانوبيس» حامل ميزان العدالة في محكمة اوزوريس في العالم الآخر(٢٣).

ويلاحظ ان رمسيس الثاني، صاحب فكرة ان مقياس الرجل الطيب ذي الأخلاق هو العمل بلا تعب في خدمة الدولة، كان ثاني ملوك الاسرة التاسعة عشرة التي شاعت خلال عهدها قصة الفلاح الفصيح، والذي تتضمن شكواه، مفاهيم معاكسة لمفاهيم رمسيس الثاني. وان كان المعتقد ان هذه القصة ظهرت، اول الأمر، في اواخر الدولة الوسطى.

من المهم، هنا، ملاحظة ذلك الموقف الانتقائي من الآلهة؛ فالفلاح، في هذه الشكوى، لا يذكر الا اسماء الآلهة الذين يمكن ان يكونوا ذوي نفع له: «توت» الحكيم، و«معات» الهة الحق والعدل، و«انوبيس» حامل الميزان في محكمة اوزوريس.

والواقع انه، طوال عهد الدولة الوسطى، في مصر القديمة (٢١٠٠ ــ ١٧٠٠ ق.م.)، كانت تتبلور ايديولوجيتان دينيتان: الأولى، وهي الايديولوجية الدينية الرسمية، وهي تكرس تسخير مجمل الشعب في خدمة الارستوقراطية الحاكمة وعلى رأسها فرعون. والثانية، وهي الايديولوجية الدينية الشعبية وتنطلق، اساساً، من مبدأ ان مهمة الحاكم، او الدولة، هي تحقيق مصالح الشعب، وان ذلك هو المقياس لكل شيء.

وفي صراعهم من اجل تحقيق مكان متميز لهم في الارستوقراطية الحاكمة، عمد كهنة آمون الى تكريس الايديولوجية الدينية الرسمية وتعزيزها، مما عمق هذا الانقسام في الايديولوجية الدينية، وعمق التعارض، بل وبرره بين الايديولوجيتين: الرسمية والشعبية. وإن كان الكهنة قد مهدوا بذلك الطريق لسقوطهم، ولسقوط الديانة القديمة باسرها.

فالأمراء الذين تجمعوا حول اجمس (١٥٨٠ ق.م.) وقادوا جيوشاً من الفلاحين المصريين لطرد الهكسوس، تزايد نفوذهم. وحصلوا على مزيد من الامتيازات السياسية والاجتماعية نتيجة لدورهم القومي في معركة التحرر من الهكسوس. اما الفلاحون الذين قاتلوا دفاعاً عن ارض الوطن، فقد اصبحوا هم الآخرون قوة يخشى جانبها، فبدأ الفراعنة يسرحون فرق الجيش المشكلة من الفلاحين، او يرسلونها الى الحدود، أو كحاميات في البلاد المجاورة المقهورة، وبدأوا يستعينون، كبديل عن الجنود المصريين، بفرق من المرتزقة يجلبونها من الخارج وأساساً من قبيلة المشاواشاة «الليبية». كذلك بدأ الفراعنة يشكون في ولاء اقاربهم وافراد حاشيتهم من المصريين، فاحاطوا انفسهم بعبيد مستوردين كانوا يسمون «المدبرين». وهكذا، وبدافع من الصراع للمحافظة على السلطة، دخل العنصر الأجنبي طرفاً في الصراع المحلي. ونلاحظ، هنا، ان خوف المتربعين على قمة السلطة في مصر من الشعب، والذي شكل احد عوامل ازمة النضال القومي، قديماً وحديثاً، كان، منذ زمن بعيد، احد الخصائص الرئيسية لسياسة الدولة المركزية في مصر.

ودخل كهنة آمون طرفاً في الصراع الاجتماعي مستغلين حاجة الملوك اليهم لضمان خضوع الشعب، فبدأ الكهنة يجمعون الثروات ويتوسعون في حيازة الأراضي حتى